الطب الايراني و الارتقاء بالتنظير في عالم الطب المعاصر

■ الدكتور آرمان زركران[١]

تاريخ المدرسة الايرانية في الطب يعود الى عشرة آلاف سنة حسبما يرى الخبير باول هيس، وان مدارس الطب الكبرى في العالم نظير الطب التقليدي وآيورفيدا والطب اليوناني، كانت قد تأسست بعد ذلك بآلاف السنين استناداً الى الطب الايراني وبالاستلهام منه. وبناء على ما يذكره سيريل الغود المؤرخ المختص بتاريخ الطب: «ان الطب الايراني كان موجوداً قبل الطب اليوناني، وان الايرانيين هم الذين علّموا اليونانيين ما يسمى بأصول الطب اليوناني. بل ان اوضاع الطب في ايران القديمة كانت اكثر تقدماً من آشور».

ويذكر غوستاف لوبون (١٨٤١ ـ ١٩٣١) في كتابه حضارة الإسلام والعرب: «العلماء في الكليات والجامعات الاوروبية والى القرن الخامس عشر، كانوا لا يعتمدون الرأي والوثوق به ما لم يكن ينسب الى المؤلفين العرب. كل الكليات والجامعات الاوروبية وطوال خمسمائة الى ستمائة عام، كانت تعتمد الترجمات المتوافرة والمتداولة المستلهمة من علوم المسلمين فحسب. وبالنسبة لبعض الفروع العلمية كالطب، يمكن القول أنها بقيت نافذة حتى في عصرنا، سيما في فرنسا، حيث كانت مؤلفات ابن سينا ماثلة الى اواخر القرن الماضي وكتبت عنها تعليقات وشروح عديدة».

ويشير السير ويليام اوسلر الى ابن سينا بصفته مؤلف اشهر كتاب دراسي في علم الطب حتى يومنا هذا، ويمضي بالقول: ان كتاب القانون كان الكتاب الاطول حضوراً من اي كتاب آخر كمرجعاً طبياً.

ويرى الكتّاب والباحثون ان حضور الطب الايراني لاطول فترة ممكنة في ميدان الطب العالمي، واعتماده من قبل كبار الاطباء؛ يعود الى اصالته العقلانية، وتشخيصاته البارزة، واختباراته السريرية الهامة، التي كانت تستحوذ ـ لا ارادياً ـ على اهتمام عالم الطب في الفترة الزمنية التي انتشر فيها. ان الكثير من هذه الافكار والنظريات ما زالت تحتفظ بحداثتها وأهميتها وتشكل ضالة القلوب الضامئة السليمة الناشطة في عالم الطب.

و في هذا المقال نحاول تسليط الضوء باختصار على خمسة مجموعات من الآراء والافكار التي تناولتها مراجع الطب الايراني والعلماء والحكماء الذين تربوا في هذه الارض الطيبة. وكلنا أمل في ان يتمكن العلماء والمفكرون الايرانيون المعاصرون، الذين كانت لديهم تحركات في غاية الاهمية على طريق نشر

---

١. عضو كلية الطب الايراني

تاريخ المدرسة الايرانية في الطب يعود الى عشرة آلاف سنة حسبما يرى الخبير باول هيس، وان مدارس الطب الكبرى في العالم نظير الطب التقليدي وآيورفيدا والطب اليوناني، كانت قد تأسست بعد ذلك بآلاف السنين استناداً الى الطب الايراني وبالاستلهام منه. وبناء على ما يذكره سيريل الغود المؤرخ المختص بتاريخ الطب: «ان الطب الايراني كان موجوداً قبل الطب اليوناني، وان الايرانيين هم الذين علّموا اليونانيين ما يسمى بأصول الطب اليوناني. بل ان اوضاع الطب في ايران القديمة كانت اكثر تقدماً من آشور».

الثقافة الاسلامية والتعريف بالمساهمات الايرانية، في ضوء الموارد التي يتطرق اليها المقال، ان يتمكنوا من التنظير بما يخدمة عالم الطب في ايران والعالم.

الحكيم، طبيب ثنائي الابعاد

في الماضي كانت العلوم العقلية والاستدلالية تسمى بالحكمة، وكان يقال للشخص الذي يلمّ بهذه العلوم، حكيم. وتقسّم الحكمة الى حكمة نظرية وأخرى عملية. وتتناول الحكمة النظرية مبحث الوجود (المادي وغير المادي)، فيما تهتم الحكمة العملية بالعلاقة بين الموجودات.

و تعتبرمعرفة الوجود والموجودات وعلاقتها بالمادة موضوع علم الطبيعيات، وان ابن سينا كان قد صنّف كتاب الشفاء المفصّل والنفيس في هذا العلم. أما معرفة الوجود بمعزل عن المادة فهو موضوع علم ما وراء الطبيعة أو الحكمة الالهية.

والانسان في المذاهب الوجودية الالهية هو ثنائي الابعاد، وان محاولة التعرف عليه دون الاخذ بالاعتبار كلا البعدين، أمر غير ممكن. ولذلك ينبغي للطبيب النظر الى الانسان والصحة والمريض، نظرة ثنائية الابعاد تتخللها الحكمة.

و ما يؤسف له ان هذه النظرة اختفت من عالم الطب اليوم، وبغيابها أمسى الطب والاطباء يهيمون في أودية من الحيرة والاضطراب. لذا ينبغي للحريصين على ثقافة الاسلام وايران الغنية، تلاوة آيات الوجود الحقيقي المهيمن على المادة والمعنى ببيان جديد وتحفيزالعقل البشري ولفت انظار الابناء الاعزاء. فاذا ما تم حذف غصن الحكمة العظيم هذا من العلوم البشرية وعلم الطب، فان مفاهيم من قبيل المعنويات والاخلاق الطبية سوف تنتهي الى تدني مخلوق القادر المتعال الحكيم وإذلاله، حيث تكمن في (الصحة والمرض) حكم وعلل،

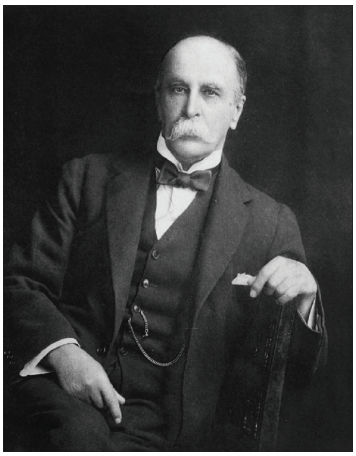

يرى الكتّاب والباحثون ان حضور الطب الايراني لاطول فترة ممكنة في ميدان الطب العالمي، واعتماده من قبل كبار الاطباء؛ يعود الى اصالته العقلانية، وتشخيصاته البارزة، واختباراته السريرية الهامة، التي كانت تستحوذ - لا ارادياً - على اهتمام عالم الطب في الفترة الزمنية التي انتشر فيها. ان الكثير من هذه الافكار والنظريات ما زالت تحتفظ بحداثتها وأهميتها وتشكل ضالة القلوب الضامئة السليمة الناشطة في عالم الطب.

وان الانسان مكلف بالكشف عن تلك الحكم والعلل وعن حقائق الطبيعة.

يقول السير ويليام اسلر أبو الطب الحديث: لا يوجد في الحياة شيء أعجب من الايمان. انه طاقة محركة كبرى ليس بوسعنا الاحاطة بها بمقياس، ولا التعرف عليها في بوتقة الاختبار.. الايمان عامل اساسي في العمل الطبي على الدوام، غير ان الذهن الغربي وبوحي من مرضه وأنانيته، يعتبر ناقل ضعيف للايمان الذي ينبغي البحث عن وجهه الحقيقي في الاديان الشرقية. لست كعالم نفس، وإنما كطبيب عادي يمارس الطبابة ويتطلع الى تقوية الضعف في الذهن والبدن، ليس في غنى عن الايمان. الذهن والروح والبدن مرتبطين ببعض بشكل لا يمكن الفصل بينهم، غير ان الطب في الغرب، وخلافاً للانظمة الشرقية التقليدية، جعل من البدن، والذهن والروح قطبين. ان التعليم الطبي في العالم الغربي يتجه بشدة نحو الجوانب الجسدية للمرضى ومراقبتها بمعايير ابسط واسهل.

تعلّم كيفية التعاطي مع الجوانب المعنوية للمراقبة الطبية، يعتبر جانباً متداولاً في المناهج الدراسية للكلية الطبية. غير ان المرضى يتوقعون منّا الاهتمام بالجانب المعنوي باعتباره جزءً من المراقبة.. العلوم الطبية والتوجّه الانساني بوسعهما الاتحاد تحت مظلة «العلوم الطبية الانسانية» وبالتالي تعميق توجّهنا المشترك لأهمية صحة الانسان وسلامته. التوجّه الذي بامكانه مساعدة الاطباء للارتقاء بالعلاقة بين المرضى والاطباء ونظام المراقبة الصحية، وبالتالي مضاعفتها لأجل تحسين وتسكين وراحة المرضى.

الاهتمام بالاخلاق الطبية المعنوية

لاشك ان تعلّم علم الطب النافع وطبقاً لقول الرسول الاكرم (ص): «خيركم أنفعكم للناس»، إنما يهدف للحفاظ على سلامة الشخص وسلامة الناس، والسعي الى ايصاله لمن يتطلع الى دراسته والاحاطة به، واعتبار ثواب ذلك زاد طريق الآخرة.. هؤلاء الحكماء الذين تفخر بهم دنيا العلم والتقوى، يعتبرون كتمان العلم ذنباً لا يغتفر، واعتبار انتقال العلم الى الآخرين بمثابة واجباً.. ان بهاء الدين الرازي الطرشتي الذي واصل طريق الرازي الكبير في القرن العاشر، يتحدث عن اسباب تأليف كتاب خلاصة التجارب القيم باللغة الفارسية موضحاً: انطلاقاً من قول الرسول الاكرم (ص) «من كتم علماً نافعاً ألجمه الله تعالى يوم القيامة بلجام من النار»، قرر تأليف هذا الكتاب القيم لنشر العلم النافع وعدم كتمانه.. امثال هؤلاء كانوا يحرصون على ترجمت التواضع بمثابة نهجاً لهم، ويمارسون الطبابة والمداواة بأساليب بسيطة وزهيدة.

ان طلائع ورواد العلم والاخلاق هؤلاء، كانوا ينظرون باحترام كبير الى العلماء الذين سبقوهم، وعلى الرغم من انهم كانوا في الكثير من المواقع ينتقدون الآراء العلمية للاساتذة الذين سبقوهم، ولكن في مؤلفاتهم كانوا يحرصون على بيان مصدر ومرجع ما يذكرونه تعبيراً عن احترامهم لأساتذة هذا الفن.. و«الرازي» دوّن آراء واساليب الذين سبقوه في العلاج، مقرونة برأيه وتصوراته الشخصية بشكل واضح وصريح، وكان يدرج في كتابه كل توصية أو وصفة مفيدة حصل عليها من الاطباء الذين سبقوه مقرونة بأسماء اصحابها.

يقول الاستاذ الدكتور فريدون عزيزي: اذا ما ألقينا نظرة الى سيرة الحكماء والاطباء الاسلاميين سيما كبار الاطباء في بلادنا، تتضح هذه الحقيقة وهي ان اصول فلسفة الاخلاق الاسلامية تتجلى في الكثير من الموارد الاخلاقية والتصرفات الطبية، اضافة الى تطلعهم لتحقيق الابعاد الاربعة للسلامة، ولعل الابرز في هذا الصدد: الالتفات الى القدرة الالهية الازلية باعتبارها المانح الاصلي، احترام الاساتذة،

يقول السير ويليام اسلر أبو الطب الحديث: لا يوجد في الحياة شيء أعجب من الايمان. انه طاقة محركة كبرى ليس بوسعنا الاحاطة بها بمقياس، ولا التعرف عليها في بوتقة الاختبار.. الايمان عامل اساسي في العمل الطبي على الدوام، غير ان الذهن الغربي وبوحي من مرضه وأنانيته، يعتبر ناقل ضعيف للايمان الذي ينبغي البحث عن وجهه الحقيقي في الاديان الشرقية.

ان طلائع ورواد العلم والاخلاق هؤلاء، كانوا ينظرون باحترام كبير الى العلماء الذين سبقوهم، وعلى الرغم من انهم كانوا في الكثير من المواقع ينتقدون الآراء العلمية للاساتذة الذين سبقوهم، ولكن في مؤلفاتهم كانوا يحرصون على بيان مصدر ومرجع ما يذكرونه تعبيراً عن احترامهم لأساتذة هذا الفن.

وما يؤسف له ان معظم تلامذة هذه المدرسة الكبرى من الغربيين، لم يحفظوا احترام اساتذتهم، وعلى الرغم من الاستفادة الجمّة من علوم وانجازات هذه المدرسة الطبية دون الاشارة الى مصادرها، حاولوا استغلالها باداء اعمال لا تليق بالعلم والمعرفة، وقد وصلت الوقاحة بهم الى درجة انهم بادروا في يوم افتتاح كرسي استاذيتهم الى احراق كتاب القانون لإبن سينا امام طلبة العلوم الطبية. كما ان ساليوس مؤسس علم التشريح الحديث، الذي ولد في بروكسل عام ١٥١٤ ميلادي، وكانت اطروحته في الحصول على اجازة الطب من جامعة لوون عبارة عن شرح وتفسير الفصل التاسع من كتاب منصوري الرازي في علاج الامراض، وقام باهداء اطروحته الى نيكولاوس طبيب البلاط في باريس. ويبرر ساليوس اختياره الرازي بسبب تقدم هذا العالم في فن العلاج مقارنة بالاجيال التي عاصرته. واستناداً لما ورد في تقرير نانسي سيراسي، أن ساليوس كان قد احرق نسخة من هذا الكتاب في عام ١٥٤٣، لأن الكتاب اضحى مثار جدل واحراج بالنسبة له بعد توليه منصبه الجديد باعتباره طبيب البلاط في اسبانيا.

للأسف ان ما بات يشكل اليوم قواعد الاخلاق الطبية في الغرب هو المدرسة النفعية المادية، او اصالة اللذة. وتم تعريف ماهية هذه الاخلاق بالقول: ما الذي ينبغي أن يفعله الانسان كي يكون لديه دخل اكثر، ويحصل على منفعة شخصية ولذة اكبر، ومضاعفة موقعيته وشخصيته في المجتمع ؟. وبناء على تعاليم هذه المدرسة، الاخلاق ليست محبذة أو غير محبذة ذاتاً، بل ان التعرف على حسن الاخلاق وقبحها ينبغي ان يكون من خلال المنافع المادية ولذة الانسان. بعبارة أخرى، العمل بالفضائل الاخلاقية يكون متى ما عملت على توفير المنافع المادية ووسائل الحياة، واضحت وسيلة للازدهار الاقتصادي، وإلا فهي بحد ذاتها تفتقد للاصالة. ولهذا يعتقد فلاسفة الغرب ان الانسان موجود انتهازي لا يهتم بغير منافعه. ومع ذلك فان المجتمع بحاجة الى جملة من الروابط الحسنة اطلقوا عليها اسم الاخلاق، والناس اقتنعوا بضرورة مراعاة حقوق بعضهم البعض، واحترام الآخرين، واداء مسؤولياته الاجتماعية حتى يراعي الآخرون ايضاً حقوقهم واحترامهم. ولهذا فان حقوق الافراد ما هي إلا فضيلة، وان تكليف ومسؤولية الاخلاق تستوجب ان يتحلى بها الناس كي يتم مراعاة منافع الجميع. وبناء على اركان المدارس الفلسفية اعلاه، تم تعريف الاخلاق الطبية كالآتي: الاخلاق الطبية عبارة عن فعالية تحليلية يتم من خلالها دراسة الافكار، العقائد، التعهدات، الاسلوب، السلوك، الاحاسيس، الاستدلالات، وبحث القرارات الاخلاقية في الطب بصورة نقدية دقيقة، واصدار التوجيهات اللازمة عند الضرورة. وما يذكر ان القرارات المتعلقة بالاخلاق الطبية، تتحدد في اطار محيط العمل الطبي، وفي ضوء البديهيات والقيم، الجيد والسيء، السليم وغير السليم، وما ينبغي فعله او لا يجوز فعله.

التعامل المناسب مع الزملاء ومراعاة الوقت، التشاور معهم عند الضرورة، الامتناع عن ادعاء الافضلية مقارنة بالزملاء أو محاولة التقليل من شأنهم، الارتباط المناسب مع المرضى مقروناً بكتمان السر، نزاهة النظرة، مراعاة الادب والتحلي بالصبر، قبول الخطأ والاعتذار، الابتعاد عن التكبر والعجب، عدم التمييز بين المرضى في العلاج، عدم توقع تعويض مالي من قبل المريض، عدم فرض نفقات اضافية واتخاذ اجراءات غير ضرورية، وعدم تجويز ادوية ذات عوارض مكلفة، اضافة الى الجدية في المطالعة والعلاج القائم على الشواهد، وعدم التمييز في تعليم مهنة الطب؛ كل ذلك يشكل خصائص بارزة ورثناها من حكماء عالم الطب، سيما الخصائص الفردية للطبيب والتي تشمل سمو الطبع، القناعة، الرأفة، الابتعاد عن الحرص والبخل والحسد والطمع والكبر والمبالغة والمراوغة، كل ذلك مثّل الثروة الاخلاقية الاسلامية التي خلّدت ذكرى الكثير من المتقدمين.

احترام الاساتذة، التعامل المناسب مع الزملاء ومراعاة الوقت، التشاور معهم عند الضرورة، الامتناع عن ادعاء الافضلية مقارنة بالزملاء أو محاولة التقليل من شأنهم، الارتباط المناسب مع المرضى مقروناً بكتمان السر، نزاهة النظرة، مراعاة الادب والتحلي بالصبر، قبول الخطأ والاعتذار، الابتعاد عن التكبر والعجب، عدم التمييز بين المرضى في العلاج، عدم توقع تعويض مالي من قبل المريض، عدم فرض نفقات اضافية واتخاذ اجراءات غير ضرورية، وعدم تجويز ادوية ذات عوارض مكلفة، اضافة الى الجدية في المطالعة والعلاج القائم على الشواهد، وعدم التمييز في تعليم مهنة الطب؛ كل ذلك يشكل خصائص بارزة ورثناها من حكماء عالم الطب، سيما الخصائص الفردية للطبيب والتي تشمل سمو الطبع، القناعة، الرأفة، الابتعاد عن الحرص والبخل والحسد والطمع والكبر والمبالغة والمراوغة، كل ذلك مثّل الثروة الاخلاقية الاسلامية التي خلّدت ذكرى الكثير من المتقدمين.